

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن يتلى عباده الصالحين حتى يرفع بذلك درجاتهم، ويكفر بها من سيئاتهم، وحتى يكونوا قدوة لمن بعدهم إذا مسهم البلاء يقتدون بهم في الصبر والاحتساب، ويتسلون بما أصابهم فإنَّ عِلْمَ المبتلى بمصيبة غيره إذا كانت مثل مصيبته أو أشد مما يخفف وقعها عليه، وقد ابتليت عائشة ببلية عظيمة ألا وهي حادثة الإفك التي اتهمت فيها بالفاحشة _عمداً_ من قبل بعض المنافقين يريدون بذلك أذية الرسول صلى الله عليه وسلم وتلطيخ فراشه، وإسقاط الثقة به، وشغله عن القيام بواجبه في الدعوة إلى الله تعالى، ولكن الله خيب سعيهم، وأبطل كيدهم، وجعل من ذلك البلاء رفعة لعائشة، ونزول براءتها من السماء قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، وترك عائشة رضي الله عنها تروي لنا حادثة الإفك بأسلوبها الجليل البليغ الذي تأسر روعته القلوب (1)

تقول رضي الله عنها كما في رواية الزهري عن جماعة عنها :

“كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه.

قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرع بيننا في غزوة غزاها (2) فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي (3) وأنزل فيه مسيرنا.

حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقفل (4) ودنونا من المدينة آذن (5) ليلة بالرحيل فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش (6) فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي (7) من جزع (8) ظفار (9) قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحسني ابتغاؤه وأقبل الرهط (10) الذين كانوا يرحلون لي (11) فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهن (12) ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العُلقة من الطعام (13) فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا.

ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش (14) فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب (15) فتيمنت منزلي الذي كنت فيه وطننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي.

فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطلّ السلمي ثم الذكواني قد عَرَّسَ من وراء الجيش (16) فأدلج (17) فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم (18) فأتاني فعرفني حين رأيته _ وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي _ فاستيقظت باسترجاعه (19) حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما يكلمني كلمة (20) ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موعرين (21) في نحر الظهيرة (22) فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كِبْرَه (23) عبد الله بن أبي بن سلول.

فقدمنا المدينة فاشتكت (24) حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يربيني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف (25) الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول: كيف نيكم؟ (26) فذاك يربيني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت (27) وخرجتُ معي أم مسطح قبَلِ المناصب (28) _ وهو متبرزنا _ (29) ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف (30) قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح _ وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر

خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب _ فأقبلت أنا و بنت أبي رهم قَبَلِ
بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: "تَعَسِ مِسْطَحُ" (31) . فقلت لها:
بئس ما قلت. أتسيين رجلاً قد شهد بدرًا؟! .

قالت: أيُّ هُنْتاه (32) أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك
فازددت مرضاً إلى مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال: كيف تيكم؟
قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: _ وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما _ فأذن لي رسول
الله صلى الله عليه وسلم.

فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هُوَني عليك. فوالله لقلما كانت
امرأة قط وضيئة (33) عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كَثُرْنَ عليها. قالت: قلت: سبحان الله!! وقد
تحدث الناس بهذا؟! .

قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع (34) ولا أكتحل بنوم (35) .
ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي (36)
يستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود. فقال يا رسول الله: هم أهلك (37)
ولا نعلم إلا خيراً.

وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير. وإن تسأل الجارية تصدقك
(38).

قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من
عائشة؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه (39) عليها أكثر من أنها
جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن (40) فتأكله (41).

قالت: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فاستعذر (42) من عبد الله بن أبي ابن
سلول قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهو على المنبر يا معشر المسلمين من
يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟! فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً
ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله. إن كان من الأوس ضربنا عنقه.
وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام سعد بن عبادة _ وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن اجتهلته الحمية (43) _ فقال
لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت
_ لعمر الله _ لنقتله. فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على
المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا

أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالحق كبدي.

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي. قالت: فيينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء.

قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي (44) حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي: أحب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن:

إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقوني وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال

أبو يوسف (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (يوسف: من الآية 18) قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.

قالت وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرئني ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحى يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى. ولكنني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام (45) رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (46) عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان (47) من العرق في اليوم الشت من ثقل القول الذي أنزل عليه.

قالت: فلما سُرِّيَ (48) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أما الله فقد برك.

فقلت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي.

قالت: فأنزل الله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأَفْكِ غُصْبَةٌ مِنْكُمْ) (النور: من الآية 11) عشر آيات فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي.

قالت: فقال أبو بكر: _ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره _ والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله عز وجل (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى) (النور: من الآية 22) إلى قوله (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) (النور: من الآية 22) فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال لا أنزعها منه أبداً؟

قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن أمري ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك" . قال الزهري: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط (49)

1. تنبيه : ما يذكر في الهوامش من شرح المفردات والجمل التي تحتاج إلى بيان أوردته ملخصاً من فتح الباري لابن حجر وما كان من غيره بينته انظر الفتح الجزء الثامن من ص (451) إلى ص (482).
2. هي غزوة بني المصطلق.
3. الهودج بفتح الهاء والبدال بينهما واو ساكنة وآخره جيم : محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه ، يوضع عن ظهر البعير يركب عليه النساء ليكون أستر لهن
4. أي رجوع من غزوته
5. بالمد والتخفيف (أَدَنَّ) وبغير مد والتشديد (أَدَّنَّ) كلاهما بمعنى أعلم بالرحيل
6. أي لتقصي حاجتها بعيداً عن الناس.
7. العقد: بكسر العين قلادة تعلق في العنق للترزين بها
8. بفتح الجيم وسكون الزاي بعدها مهملة : خرز معروف في سواده بياض كالعروق
9. ظفار بفتح الطاء المعجمة ثم فاء بعدها راء مبنية على الكسر فهي مدينة باليمن ، وقيل جبل ، وقيل سميت به المدينة وهي في أقصى اليمن إلى جهة الهند
10. هو عدد من ثلاثة إلى عشرة
11. رحلت البعير إذا شددت عليه الرحل
12. لم يكثر فيهن اللحم
13. بضم العين المهملة وسكون اللام ثم قاف أي القليل
14. أي ذهب ماضيا ، وهو استفعل من مر .
15. أي ليس بها أحد
16. قال ابن الأثير: التعريس : نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة اهـ
17. قال ابن الأثير: الدلجة السير بالليل يقال أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل وادلج - بالتشديد - إذا سار من آخره. قال ابن حجر: وعلى هذا فيكون الذي هنا بالتشديد لأنه كان في آخر الليل.
18. السواد بلفظ ضد البياض يطلق على الشخص أي شخص كان ، فكأنها قالت : رأى شخص آدمي ، لكن لا يظهر أهو رجل أو امرأة .
19. أي بقوله إنا لله وإنا إليه راجعون
20. عبرت بهذه الصيغة إشارة إلى أنه استمر منه ترك المخاطبة لئلا يفهم _ لو عبرت بصيغة الماضي _ اختصاص النفي بحال الاستيقاظ فعبرت بصيغة المضارعة .
21. بضم الميم وكسر الغين المعجمة والراء المهملة أي نازلين في وقت الوغرة بفتح الواو وسكون الغين وهي شدة الحر لما تكون الشمس في كبد السماء
22. تأكيد لقوله : موغرين ، فإن نحر الظهيرة أولها وهو وقت شدة الحر ، ونحر كل شيء أوله كأن الشمس لما بلغت غايتها في الارتفاع كأنها وصلت إلى النحر الذي هو أعلى الصدر
23. كبره أي كبر الإفك وكبر الشيء معظمه
24. أي مرضت
25. تعني الرفق
26. كيف تيكم " بالمشاة المكسورة وهي للمؤنث مثل ذاكم للمذكر
27. بفتح القاف وقد تكسر والأول أشهر ، والناقه بكسر القاف الذي أفاق من مرضه ولم تتكامل صحته

28. المناصع صعيد أفيح _ أي واسع _ خارج المدينة
29. موضع قضاء الحاجة
30. جمع كنيف وهو الساتر ، والمراد به هنا المكان المتخذ لقضاء الحاجة
31. تعس: بفتح المثناة وكسر العين المهملة ويفتحها أيضا بعدها سين مهملة أي كب لوجهه أو هلك ولزمه الشر
32. أي هنتاه : بمعنى يا هذه .
33. بوزن عظيمة من الوضاعة أي حسنة جميلة
34. لا يرقأ أي لا ينقطع
35. استعارة للسهر
36. أي استبطأ نزوله
37. أي العفيفة اللائقة بك
38. نقل الحافظ ابن حجر عن الشيخ أبي محمد بن أبي جمرة أنه قال : لم يجزم علي بالإشارة بفراقها لأنه عقب ذلك بقوله : " وسل الجارية تصدقك " ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأنه قال : إن أردت تعجيل الراحة ففارقها ، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها . لأنه كان يتحقق أن بربرة لا تخبره إلا بما علمته ، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة. اهـ
39. (أغمصه) أي أعيبه
40. الداجن: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى
41. قال ابن حجر (وفي رواية ابن حاطب عن علقمة " فقالت الجارية الحبشية : والله لعائشة أطيب من الذهب ، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنك الله . قالت : فعجب الناس من فقهاها) .
42. أي طلب من يعذره منه ، أي ينصفه
43. أي حملته على الجهل.
44. أي استمسك نزوله فانقطع
45. رام : أي فارق
46. البرحاء: أي شِدَّة الكَرْب من ثِقَل الوَحْي. النهاية في غريب الحديث والأثر(1/113)
47. الجمان: هو اللؤلؤ الصغار وقيل حَبُّ يُتَّخَذ من الفِصَّة أمثال اللؤلؤ. النهاية في غريب الحديث والأثر(1/301)
48. سري: بضم المهملة وتشديد الراء المكسورة أي كشف
49. صحيح البخاري (4/1517ح4/3910) كتاب المغازي. باب حديث الإفك مسلم (4/2129ح4/2770) كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف.